أبرز المظاهر الاجتماعية فى سلطنة دلهي

(٦٠٢ ـ ٨٠١هـ/ ١٢٠٦ ـ ١٣٩٩م)

مركز البحوث
والدراسات التاريخية

إبراهيم محمد على محمد مرجونة

مدرس التاريخ الإسلامى وحضارته

آداب دمنهور – جامعة الإسكندرية

تستمد الهند اسمها من كلمة "سندو" وهو الاسم الهندي لنهر الاندوس(نهر السند) ومن هذه الكلمة اشتقت كلمتا "تد" و"هند" ومعناهما الارض التي تقع فيما وراء نهر الاندوس وأصبح سكان هذا الاقليم يسمون الهندوس أو الهنود كما أصبحت بلادهم تعرف بالهندوستان [١].

أما عن الموقع الجغرافي للهند فيحدها من الشمال جبال الهملايا ومن الغرب جبال هندكوش وسليمان حيث تقع افغانستان وإيران ثم تمتد الهند إلي الجنوب في شبه جزيرة يقع بحر العرب في غربها وخليج البنغال في شرقها وسيلان في طرفها الجنوبي ويتجه الاقليم الشمالي منها إلي الشرق حتى جبال آسام[٢] وهي تقع شمال خط الاستواء بين خطي عرض ٨-٣٧ وخطي طول ٦١-١٠٠شرق جرينتش . [٣]

أما عن مدينة دلهي[٤] فهي تقع بالجزء الشمالي من الهند يحدها من الجنوب آكرا ومن الشمال لاهور وملتان وهي ذات موقع استراتيجي متميز وتشكل أهمية سياسية واقتصادية بالنسبة للهند وكأنها القلب النابض[٥].

ويرجع اهتمام المسلمين ببلاد الهند إلى عصر الخلفاء الراشدين، فعندما تولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة (٢٣-٣٥هـ -٦٤٤-٦٥٦م) كتب إلي عبدالله بن عامر بن كريز والي العراق يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يفتحها،

واشترط ان يكون لديه الصفات التى تؤهله للقيام بهذا العمل، فوجه "حكيم بن جبله" العبدى، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد. فقال: **"يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتنحرتها، قال فصفها لى، قال ماؤها وشل وثمرها دقل، ولصها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا وإن كثروا جاعوا فقال له عثمان: أخابر أم ساجع، قال: بل خابر...."** (٦).

ومن خلال قراءة الرواية السابقة تبين أن بلاد الهند آنذاك كانت ذات أهمية عظمى، ولأهلها طبائع خاصة، ويحتاج فتح هذه البلاد الي إعداد جيد وتخطيط متقن، لأنها تعانى من فساد اقتصادى وعشوائية سياسية، فيجب توخى الحذر من قبل المسلمين وعدم الاندفاع فى اتخاذ قرار سياسى، لأن غياب الرؤية السليمة للأحداث معناه ضياع الجيش وهلاكه وكذلك يتضح من دراسة هذه الرواية أن ولى الأمر يتحرى بنفسه صحة الأخبار والمعلومات التي حصل عليها من الرواية وهل هناك مبالغات فيها، وما يجب عليه ان يفعل في ضوء صحة هذه الاخبار من وضع استراتيجيه حربية تناسب الاوضاع في تلك البلاد.

علي أية حال، فمنذ هذه اللحظة شرع المسلمون في شن عدة حملات على أطراف هذه البلاد، كانت بغرض الاستطلاع وبدأت أول حملة نظامية على بلاد الهند فى عهد الخليفة "الوليد بن عبدالملك" (٨٦-٩٦هـ-٧٠٥-٧١٥م)، الذي أذن "للحجاج بن يوسف الثقفى" - عامله على بلاد العراق - بإيفاد حملة إلى الهند فأرسل عدة حملات لم تصل كلها إلى نتيجة حاسمة، فأعد جيشاً أسند قيادته إلى ابن أخيه "محمد بن أبي القاسم الثقفى" عام ٩٢هـ/ ٧١١م وعنى الحجاج بتزويد هذا الجيش بما يحتاج إليه من المؤن والمعدات حتى الخيوط والقطن المحلوج المنقوع فى الخل(٧).

ولقد اتخذ المسلمون من مدينة "شيراز" قاعدة تحركوا منها، فزحفوا إلى ثغر مكران ومنه اتجهوا إلى ديبل، وانضمت إلى المسلمين أعداد غفيره من الميد والجات (الزط)(٨) وهما قبيلتان هجرتا ديارهما فرارًا من بطش وجور الدولة

البرهمية (احدى الطوائف الدينية التابعة للهندوس)التى كانت تعتبرهما فى عـداد المنبوذين، وكانت تحرم عليهما اصطياد الدواب أو ارتداء الملابس الراقية وألزموا أفرادهما بممارسة أحط المهن(٩).

نستنج من خلال ما سبق أن الاضطهادات السياسية وسوء المعاملـة وعـدم إنزال فئات وعناصر هذا المجتمع منازلهم، عدت عوامل مؤثرة سهلت من مهمـة المسلمين فى الهند بعض الشئ، حيث انضم إلى الجيوش الاسلامية الميد والجـات هربًا من ظلم وبطش البرهمية، وبحثًا عن دور سياسي لهم فى المنطقة.

وقوى شأن المسلمين بالميد والجات، فاتجهوا عام ٩٢هـ/ ٧١١م إلى ديبل، واشتبك الجيش الإسلامي مع داهر ملك السند فى معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة داهر، واستولى المسلمون على ديبل، وأقام محمد بن أبي القاسم فيهـا مـسجدًا، وصارت ديبل أول مدينة عربية بالهند وتركت بها حامية إسلامية تتكون من أربعة آلاف جندى(١٠).

وتقدم محمد بن أبي القاسم صوب الشمال، وتمكنت قواته من الاستيلاء على العديد من المدن وواصل المسلمون تقدمهم حتى بلغوا الملتان فاستولوا عليها عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة، ثم قام محمد بن القاسم بعد أن أقر الأمور فى البلاد التى فتحها بغزو مملكة قنوج – أعظم إمارات الهند – لكن الحجـاج تـوفى ٩٥هـ/ ٧١٤م، وبعد ذلك بقليل توفى الخليفة الوليد بن عبدالملك، وخلفه أخوه سليمان بـن عبد الملك (٩٦ – ٩٩هـ/ ٧١٥ – ٧١٧م) فلم يقدر لمشروع محمد بن أبي القاسم أن يتحقق، لأن الخليفة الجديد كان معارضاً لسياسة سلفه، فقام بعزل محمـد بـن القاسم عن السند، وولى بدلاً منه يزيد بن أبى كبشه وأمره بالقبض على محمد بـن القاسم، وإرساله إليه وسيق فاتح السند مقيدًا بالسلاسل إلى واسط حيث أودع السجن ولقى حتفه بعدها بفترة قصيرة(١١).

وبعد أن دانت معظم بلاد الهند للمسلمين رحب أهلها بحكم المـسلمين لهـم لأنهم قاسوا كثيرًا من ظلم وجور، وتجلى ذلك فى إقبالهم على محمد بـن القاسـم

يدقون الأجراس ويقرعون الطبول ويرقصون رقصاتهم الشعبية، ولما سقطت الدولة الأموية ١٣٢هـ/٧٤٩م وقامت الدولة العباسية علي انقاضها حافظ خلفاؤها على بلاد الهند الإسلامية ولكن خلفاء العصر العباسى الثانى أهملوا شأن إقليم السند(١٢).

واقطع الخليفة العباسى المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ – ٨٩٢م) السند ليعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية فى سجستان عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م وكذلك أعطاه الخليفة العباسى عديداً من البلدان، حتى لا يتطلع إلى السيطرة على العراق(١٣) وكانت هذه الحقبة بمثابة انتفاضة وإعلان عن حركات قومية استقلالية فى بقاع شتى من العالم الإسلامى والتي تعددت أشكالها، فمنها ما قام لسد حاجة ثغرية، ومنها ما استقل لأسباب قومية وعصبية أو دينية منهجية.

وأعقب زوال الدولة الصفارية ظهور السامانيين (٢٠٤- ٣٩٥هـ/ ٨١٩ – ١٠٠٥م) الذين توسعوا فى خراسان وبلاد ما وراء النهر ثم ظهر الغزنويون (٣٣٦ – ٥٨٢هـ/ ٩٤٧ – ١١٨٦م) فى خراسان وأفغانستان وشمالى الهند وأعقبهم الغوريون (٣٩٠ –٦١٢/ ١٠٠٠ – ١٢١٥م) فى المناطق نفسها، ويعود الفضل إلى الغزنويين والغوريين في نشر الإسلام فى بلاد الهند، وتوسيع رقعة العالم الإسلامى، ولعب السلطان محمود الغزنوى دورًا كبيرًا فى تحطيم وتدمير قلاع الوثنية فى بلاد الهند، وجعل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى(١٤).

وتلى حكم الغوريين فى الهند قيام أول دولة مستقلة فى هذه البلاد، وهى دولة المماليك ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م، ومعها بدأ عصر سلطنة دلهى، حيث كانت حاضرتها دلهى، ولما ضعف شأن المماليك انتزع الخلجيون ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م الحكم منهم، وأعلن جلال الدين فيروز نفسه سلطاناً على دلهى، وأعقبه السلطان علاء الدين ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م، الذي يعتبر من أعظم سلاطين الهند المسلمين، فقد قام بتوسيع رقعة دولته فى بلاد الهند، ودرأ عنها الخطر الخارجى، وقمع الفتن والثورات فى بلاده، وأصلح الجهازين الإدارى والمالى فى مملكته، ولم يألُ جهدًا فى سبيل تنمية موارد البلاد الاقتصادية، كما بذل جهدًا كبيرًا فى نشر الثقافة فى بلاده، وشجع

رجال العلم والفكر على تأدية مهامهم العلمية نحو الوطن والمواطنين[١٥]. وأحـــدث عهد هذا السلطان طفرة فى تاريخ الهند كان لها مردودها العلمى والثقافى والسياسى وساعدت على توطيد أركان دولته.

وبعد وفاة السلطان علاء الدين ضعفت الدولة الخلجية فانهارت تماماً وسيطر تغلق ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م أحد كبار القواد فى سلطنة دلهى على مقاليد الأمور فـــى البلاد، وأقام الدولة التغلقية على أنقاض دولة الخلجيين وتعاقب سلاطين آل تغلق فى الحكم، حتى غزا تيمورلنك دلهى ودمرها تدميرًا[١٦].

وبذلك دخلت سلطنة دلهى فى طور جديد تحت حكم المغول المسلمين تباينت فيه الأحوال السياسية والنواحى الحضارية، ولبست فيه دلهى ثوبًا جديدًا فى كافـــة المناحى.

وسنحاول جاهدين رصد أبرز المظاهر الاجتماعية فى سلطنة دلهى إبان حكم المماليك والخلجيين وآل تغلق، محاولين إيضاح قيمة وأهمية هذه المظـــاهر، ومـــا أحدثته من طفرة فى معظم النواحى الحضارية.

أولًا: النواحى المعيشية فى سلطنة دلهى (٦٠٢ – ٨٠١هـــ/ ١٢٠٦ – ١٣٩٩م):-

أ-المأكل والمشرب:

لم تتلق تربة الهند بذور المدنية عن رضى، فقد كان شطر عظيم منها تغطيه الغابات التى تسكنها وتزود عنها سباع ونمور وفيله وثعابين وغيرها وقـــد دخـــل الهنود فى صراع حيوى، لانتزاع هذه الأراضى من الحيوانـــات المتوحـــشة عـــن طريق صيدها وعمل أفخاخ لها، حتى تمكنوا من السيطرة على معظم الأراضى بعد صراعات دامية بين الطرفين ينطبق عليها مبدأ البقاء للأقوى[١٧].

ولما خلصت الأرض على مرِّ الزمن من الكواسر تحولت إلى حقول يُـــزرع فيها الأرز والقطنى والذرة والخضر والفواكه، وصارت هـــذه الأطعمـــة أطعمـــة

أساسية لديهم، وقد رضى غالبية سكان الهند خلال الشطر الأعظم من تاريخهم بأنواع من الأطعمة المتواضعة، كان قوامها الأساسي أغذية طبيعية، فكانوا يجففون اللحم والسمك والطيور، وحَرَمت بعض المذاهب الدينية مثل الهندوكية أكل الأبقار والثيران، وأكلت بعض القبائل الفئران والقطط[١٨].

أضفى الهنود ولاسيما في سلطنة دلهي قدراً غير مألوف من التوابل على طعامهم، مثل البهار الهندى والزنجبيل والقرنفل والقرفة، رغبة منهم في جعله طعاما شهياً، وقد صادفت هذه التوابل تقديرًا عظيمًا لدى الأوربيين بل راجت بين الشرق والغرب وسعى الجميع وراء تجارتها[١٩].

ولقد أحدث احتكاك سلطنة دلهي بالدول الإسلامية والدول الأوربية وغيرها إدخال أصناف جديدة من الأطعمة، شرقية كانت أم غربية، بجانب ما احتفظ به الهنود من أطعمتهم الأساسية المتوارثة منذ القدم، وظهر هذا الاحتكاك مع الفتح الإسلامى والدولة الغزنوية والغورية والتيمورية، وكذلك إبان عهد المماليك والعهد الخلجى وعهد بنى تغلق، فظهر شراب الكوزموس واللحم المجفف على الشمس وانتشر الذبح على الطريقة الإسلامية، ولم يحرم المسلمون أكل الأبقار والثيران[٢٠].

أما عن عادات الاكل عند الهنود بصفة عامة وعند سلطنة دلهي بصفة خاصة فأنهم يندفعون إلي التطهربدافع من انفسهم، لايجبرهم عليه أحد فحتم عندهم أن يغتسل الآكل قبل وجبته: ويستحيل ان تُقدم الفتات والبقايا لوجبة أخرى، ولاتستعمل أوعية الطعام لأكثر من أكله واحدة، فما كان منها مصنوع من الخزف أو من الخشب يجب رميه بعد استعماله، وأما ماكان منها مصنوعا من ذهب أو فضه أو نحاس أو حديد وجب إعادة صقله، ولايلبث الهنود بعد فراغهم من طعامهم أن يلوكوا مساويكهم لتنظيف أسنانهم، ولايلمس أحد منهم أحد إلا إذا اغتسلوا[٢١].

نخلص هنا إلي أنه قد ظهرت هناك اطعمة جديدة لم يعهدها الهنود من قبل، وانتشرت إبان عهد سلطنة دلهي، وكان أهمها لحوم الحيوانات ولاسيما الأبقار عند معتنقى الإسلام من الهندوس وشرب الكزموس المشروب المغولى الذى انتقل إلى

فارس ومنها إلى بلاد الهند وهو عبارة عن لبن مخمر ومجفف أحيانًا وكذلك اللحم المجفف على أشعة الشمس وهذه الأطعمة والأشربة نتجت عن الاحتكـاك بـالبلاد الإسلامية ومغول بلاد فارس المسلمين (الدولة الإيلخانية).

ب-المسكن

تميزت الأبنية فى سلطنة دلهى بجمالها وحسن عمارتها وطرزها المتنوعـة، فكما أكثر سلاطين المماليك بمصر من بناء المساجد والعمارات والمنازل، كـذلك فعل سلاطين المماليك بالهند(٢٢).

وصار الاهتمام بالنواحى العمرانية والمساكن هى السمة السائدة طيلة عهـد المماليك والعهد الخلجى و بنى تغلق، ومن أمثلة ذلك بنـاء القـصور والمـساجد والمدارس والمستشفيات والمقابر وإقامة الجسور والقناطر وحفر الترع والأنهـار والآبار، وإنشاء الحدائق(٢٣).

ومن أشهر المشروعات العمرانية فى عهد فيـروز شـاه التغلقـى (٧٥٣ – ٧٩٠هـ/ ١٣٥١ – ١٢٨٨م) إنشاء مدينة جديدة قرب دلهى عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م سماها فيروز أباد، وحفر لها نهرًا، كما أجرى إصلاحات معمارية عديدة، وكان له دور اجتماعى مميز، إذ وفر سبل الحياة والمعيشة للمقعدين العاجزين عن العمـل، وكذلك المرضى وقدم لهم العلاج اللازم(٢٤).

ج- الملبس:

كانت للملابس في سلطنة دلهي طابعها المميز، وتشابهت في معظم الاحيـان مع ملابس سائر الهنود، فكان الأولياء الصالحون عندهم عراة الاجسام من أعلـى أوساطهم (ومازال الناس علي هذا الحال في مدينة بالي حتى وقتنا الحاضر)(٢٥).

أما عن الاطفال فكانوا يكتسون في الأغلب بخرزات وحلقات وقطع بـسيطه من القماش، ويمشى معظم الناس في دلهي حفاه الاقدام، وإن لبس بعضهم أحذيـة كانت مصنوعة من الجلد وتميزت ببساطتها، وكان يكفى عدد كبير من الرجال من

الثياب خرقة علي ردفيه فإذا أراد الزيادة من الغطاء لفوا أوساطهم بثوب وطرحوا طرفه المرسل علي الكتف اليسرى، أما عن الراجبوت في سلطنة دلهي فكانوا يلبسون السراويل من كل لون وشكل، وخفاف أو أحذية في القدم، وعمائم على الرأس أخذوها عن المسلمين، وجعلوها من عادتهم أن يلفوها لفاً متقناًحول رؤوسهم في أشكال مختلفه تدل علي طبقة لابسيها، لكنها في جميع الحالات كانت تقتنع من قماش حريري(٢٦).

وجاءت ملابس النساء في سلطنة دلهي خاصة وفي الهند عامة ذات سمة مميزة لها عن بقية النساء في مناطق شتى، حيث لبس النساء أثواباً فضفاضة من حرير يسمونها "ساري"أو يلبسن "خدارا" من نسيج البلاد، يتلفعن به علي أكتافهن، ويربطنه عند الوسط، ربطا وثيقاً،ثم يرسلنه على القدمين، وهن يتركن أحياناً جزءاًمن أجسسادهن البرونزية عاريا تحت الثديين، ومن عادتهم كذلك ان يطلوا شعورهم بالزيت ليقيهم حرارة الشمس اللافحة، أما الرجال فيفرقونشعورهم في الوسط، ثم يجمعون أطرافه في حزمة خلف الأذن اليسرى، وأما النساء فيضفرن بعض شعورهن حويةً فوق الرأس، ثم يرسلن بقية الشعر إرسالا، وكثيرا ما يزنين بالزهور، أو يغطينه بلفاع، فكان لرجالهن هندام لطيف، ولفتياتهم جمال،وجميعهم ذوو قوام رائع(٢٧).

ثانيًا- عناصر المجتمع في سلطنة دلهي:

تعددت الأجناس فى بلاد الهند وتنوعت اللغات والأديان، وتعرضت الهند فى تاريخها الطويل لغزوات كثيرة، جلبت لها هجرات من شعوب مختلفة، واندمجت هذه الشعوب مع السكان الأصليين، وانقسم سكان الهند الذين كانوا يعرفون بالهندوس إلى أربعة عناصر: العنصر الأسود والعنصر الأصفر والعنصر التورانى والعنصر الآري(٢٨).

كان الآريون أكثر العناصر تأثيرًا فى شعوب الهند، أقاموا فى بادئ الأمر فى وادى السند وأوغلوا تدريجيًا فى داخل الهند، ودخلوا الدكن فى آخر الأمر، واندحر

أمامهم السكان الأصليون، كما اندحروا أمام الصفر، حتى اضطروا إلى الاعتصام بمناطق الدكن الوسطى الجبلية ذات الغابات، ودخل العنصر الآرى الأبيض وادى السند، وقهر العناصر التورانية وأوغل فى غرب الهند وجنوبها[٢٩].

وكانت هناك ثلاث جاليات أجنبية فى الهند وسلطنة دلهي، الأولى وهى الأكثر عددًا قدمت عبر حدود الهند الشمالية الغربية، واستقر أفرادها بصفة خاصة فى السند والبنجاب، وتمثلت الثانية في بقايا المحاربين المسلمين الذين أقاموا بكثرة فى أعالى الهند، وبدرجة أقل بكثير فى هضبة الدكن والطبقة الثالثة والأخيرة هي التي استوطن أفردها الساحل الغربى، ولا يستبعد أن يكونوا من أصل عربى، ولقد جاء الذين أسسوا هذه المستعمرات إلى بلاد الهند عن طريق البحر، ومعظم من وفد منهم من البنجاب وما جاورها[٣٠].

واستقر فى بلاد الهند وسلطنة دلهي كذلك عناصر من العرب والترك والفرس والأفغان وقد جاوز العرب، بحر عمان للتجارة، وأنشأوا المستودعات، وسيطروا على بعض البلاد الهندية فى السواحل الغربية، نحو مصب نهر السند، أما العناصر الأخرى فقد وفدت إلى بلاد الهند فاتحة من الشمال الغربى منذ عهد السلطان سبكتكين الغزنوى[٣١].

كان للراجباوات أهمية كبيرة فى بلاد الهند، وهم أقدم طبقة أشراف فى العالم ولهم تاريخ موغل في القدم وكانوا فرسانا على قدر كبير من الشجاعة والمهارة العسكرية، وقد قاوم الراجباوات المسلمين بشراسة وعناد، وقد اقاموا في حصون وبروج مشيدة، وقطن حاكمهم حصنه الحصين، وأقطع الأفراد الخاضعين له الإقطاعات الداخلية فى دائرته وألزمهم بأداء الخدمة العسكرية لسيده[٣٢].

وعندما اعتلى المماليك عرش البلاد، ومن بعدهم الخلجيون، ثم بنى تغلق مقاليد الحكم والأمور فى سلطنة دلهى، شكلوا قمة الهرم الطبقى هم وأقاربهم، ولكن ظل المجتمع المتماثل فى الهندوس بعناصرهم الأربعة (الأسود والأصفر والتورانى والآرى) وكذلك الجاليات الأجنبية من (عرب وترك وأفغان وفرس) وقد جمع كل

عنصر من هذه العناصر بين طياته الفئة العليا والوسطى والدنيا، كلٍ على حسب مكانته وقدره وماله ونفوذه داخل طبقته(٣٣).

أما عن طبقة الرقيق، فقد انتشر الرقيق فى سلطنة دلهى انتشارًا واسعًا بسبب كثرة الحروب، فاستخدموا فى الجندية وفى وقت السلم مارسوا الأعمال اليدوية كالزراعة والصناعة والتجارة، أو الخدمة فى البيوت والدور، وتدرج بعضهم فى سلك الجندية حتى بلغ منصب السلطنة، فكان (قطب الدين أيبك ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م) أول سلاطين المماليك فى الهند مملوكًا عند سيده شهاب الدين، وظهرت شجاعته حتى ولاه قيادة جيوشه، ثم استنابه فى إقليم الهند التابع لدولة الغور، ولما سقطت الدولة الغورية، حرص سلاطين دلهى على شراء المماليك والاعتماد عليهم فى الجندية، وممن تدرج فى سلك الجندية كافور، وكان عبدًا حبشيًا قديرًا جلبه القائد نصيرت خان إلى سيده، وأحرز كثيرا من الانتصارات فى المعارك التى قادها لعلاء الدين، وكان علاء الدين يؤثر كافور بالمشورة بل وقع تحت تأثيره، ولما توفى علاء الدين، أجلس كافور أصغر أبنائه على العرش تحت وصايته، حتى ينفرد هو بالسلطة والحكم فى البلاد، وأساء كافور السيرة، ونكل بكل من اعترض طريقه، ولكن مماليك علاء الدين قبضوا عليه وقتلوه، وأسندوا السلطنة إلى مبارك خان(٣٤).

واللافت للنظر والانتباه أن بعض الرقيق استطاعوا بما تميزوا به من ذكاء ودهاء ومهارات حربية أن يقلبوا وضعهم الاجتماعى رأسًا على عقب، فمن كونهم يتزيلوا الهرم الطبقى الاجتماعى إلى الصعود لرأس الهرم، حتى يصيروا حكامًا، بل وينشئوا دولة من أولادهم وأحفادهم، ولا يمتلك هذه المهارات إلا القليل من الناس.

ولقد حرص سلاطين دلهي وأمراؤها على عتق العبيد تقربا إلي الله، حيث أن الإسلام حث المسلمين على عتق العبيد والعمل على تحريرهم قال تعالي:

{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا] (٣٥). صدق الله العظيم.

وللعتق أسباب كثيرة أهمها فى الإسلام إظهار العبد للتقوى أو دخوله الإسلام أو فداء عن يمين أو وفاء النذور أو التماس للثواب أو شكر لله علـــى نعمـــة وقـــد حرص سلاطين دلهى وأمراؤها على عتق العبيد فى العيدين تقربًا إلى الله(٣٦).

وكان للجواري دور داخل مجتمع سلطنة دلهي ولكن كان حظهـــم اوفـــرمن العبيد ومن أبرز الأعمال التى قامت بها الجوارى الغناء، وكانت من تحسن الغنـــاء فيهن باهظة الثمن، وبلغ بعضهن شأنا كبيرًا فى قصور السلاطين والأمراء، وكان سلطان دلهى وأمراء المملكة يتبادلون الهدايا ومن بينها المماليك، وإذا وفـــد زائـــر على أحدهم يقدم له هدية من المماليك وينعم السلطان على كبار رجال دولتـــه فـــى العيدين بهدايا من الرقيق(٣٧).

غاية القول أن تعدد الطبقات واختلافها داخل الهند وسلطنة دلهي مردوده إلى تعدد الأجناس وتنوع اللغات والأديان، هذا إلي جانب سيل الهجرات والاحتكاكـــات التى تعرضت لها الهند على المستوى السياسي والحربى، وكذلك علـــى المـــستوى الحضارى من خلال التجارة والنواحى الاقتصادية والاحتكاكات الثقافية والعلمية مع باقى الدول والحضارات المجاورة، فصارت الهند مهبطا للعديد مـــن الثقافـــات و الطبقات و عناصر السكان .

ثالثًا- المرأة ودورها:

تمتعت المرأة فى سلطنة دلهى بقدر كبير من الحرية، ممـــا ســـاعدها علـــى ممارسة العديد من الأنشطة، بل ترك عليها مردودًا إيجابيًا إذ جعلها تمارس أنشطة كثيرة أظهرت من خلالها قدراتها ومواهبها(٣٨).

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد' بل بلغ نشاطها السياسى أوجه' حيث تربعت على عرش دلهى امرأة هـــى الـــسلطانة رضـــية (٦٣٤ - ٦٣٧هــــ/ ١٢٣٦ - ١٢٤٢م)، وقد دربها أبوها السلطان التمش على إدارة الدولة، وعهد إليها من بعده،

وأحبطت كل المؤامرات التى دبرت لخلعها، وتزيت بزى الرجال، وقادت الجيوش بنفسها راكبة الفيل. وبرز فى دلهى أيضًا شاه تركان والدة السلطان فيروز الثانى (٦٨٩ – ٦٩٥هـ/ ١٢٩٠ – ١٢٩٦م) وحكمت البلاد، لأن ابنها لم يستطع مباشرة شؤون الحكم والسياسة(٣٩).

ولقد أحسنت المرأة فى سلطنة دلهى استغلال الحرية التى أُعطيت لها وكانت، مؤهلة للقيام بأدوار سياسية كبيرة، ولم تقل عن نساء بعض الخلفاء فى المشرق الإسلامى، اللائي كان لهن باع كبير فى العمل السياسى، أمثال أم مجد الدولة البويهى وشجر الدر وغيرهما.

وأتقنت المرأة الهندية فى سلطنة دلهى تدبير المؤامرات والصراعات، فكما نبغت فى الخير والعمل السياسى، نبغت أيضًا فى الشر والصراعات فقد لعبت زوجة علاء الدين (٦٩٥ – ٧١٥هـ/ ١٢٩٦ – ١٣١٦م) ووالدتها زوجة السلطان جلال الدين خلجى (٦٨٩ – ٦٩٥هـ/ ١٢٩٠ – ١٢٩٦م) دورًا كبيرًا فى الخلاف الذى نشب بين السلطان وابن أخيه، ولما دبر علاء الدين قتل عمه جلال الدين تحصنت زوجة السلطان القتيل فى دلهى، وأعلنت تولية ابنها ركن الدين إبراهيم ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م، ولكن علاء الدين أحبط محاولتها وولى السلطنة(٤٠).

ومن الأهمية أن نشير أيضاًإلي أن المرأة في سلطنة دلهي كانت محبة للحياة العائلية مقدسة لها، وإذا ما بلغت مرحلة الزواج تعقد حفلاً للخطوبة وتدعو إليه الشبان، وتختار زوجاً من بينهم، وتخلص المرأة الهندية لزوجها كل الإخلاص حتى أنها تحرق نفسها إذا مات زوجها ولم يترك ولدًا، وتعتبر حياتها بعد زوجها عذابًا لا يطاق وقد أبطل السلطان فيروز شاه التغلقى (٧٥٣ – ٧٩٠هـ/ ١٣٥٢ – ١٣٨٨م) هذه العادة السيئة(٤١).

وبلغ من وفاء المرأة الهندية في سلطنة دلهي لعائلتها ووطنها عمومًا أنها كانت تفضل الموت على الوقوع فى أيدى العدو، بل أحرقت النساء أنفسهن، عندما سقطت شيتور فى أيدى السلطان علاء الدين خلجى (٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م) حتى لا

يقعن فى أسر أعدائهن، وأحرقت نساء الهنادكة أنفسهن فى أثناء هجوم تيمورلنك (٧٧١ – ٨٠٧هـ/ ١٣٧٠ – ١٤٠٥م) على دلهى[٤٢].

ونالت المرأة في سلطنة دلهي الرعاية من قبل معظم الحكام حيث اهتم السلطان فيروز شاه التغلقى برعاية الضعفاء من النساء فأنشأ ديوانا للخيرات يقوم بتجهيز الفتيات الفقيرات للزواج[٤٣].

ولكن بشكل عام أثرت الحضارة الإسلامية فى تغير العديد من الأفكار والعادات السيئة لدى الهنود وكذلك قدمت لهم الحضارة الإسلامية ممثلة فى الحكام المسلمين الرعاية المتكاملة والإحسان إليهم وفتح قنوات الاتصال بين الخلافة الإسلامية في المشرق وبلاد الهند وتوفر الاحتكاك والنقل الحضارى والثقافى.

رابعًا- العادات والتقاليد:

بعد أن انقرض من الهند نظام الطبقات، طرأ على الحياة الخلقية فيها طور طويل الأمد تسوده الفوضى، لأن التشريع الخلقى فى هذه البلاد قد ارتبط بنظام الطبقات ارتباطًا يكاد لا يكون له انفصام[٤٤].

وظهرت نزعة الزهد قوية فى الهند، وذلك لأن طبيعتهم الفلسفية دفعتهم إلى التأمل والتفكير فى الخالق والخلق، وخلصت نواياهم نحو الله، واتجهوا إليه بكل ما استطاعوا، وصفت نفوسهم، ورأوا أن النفس إذا نالت ما أردات انقادت إلى المعاصى، ففضلوا التغلب عليها، وفي سلطنة دلهي الإسلامية كان هناك كثير من الزهاد، نخص بالذكر منهم محمد العريان، وهو شيخ حسن الصورة يجلس فى زاوية ولا يلبس إلا ثوبًا من سرته إلى أسفل وباقى جسده مكشوف، ومن كبار الصالحين الشيخ محمود الكبا ويزعم الناس أن المال يأتيه من حيث لا يحتسب، وهو يطعم الوافدين، عليه ويغدق على الناس الأموال الكثيرة، ويقولون أن له كرامات كثيرة، ومن المشايخ الزهاد العالم العابد علاء الدين النيلى، الذي كان يعظ الناس فى كل يوم جمعة، وقد أتاب كثير من الناس إلي الله بفضل جهوده، وبلغ تأثرهم به درجة كبيرة جدًا، فكان مسموع الكلمة لديهم[٤٥]، وأولاه الخلجيون وبنو

تغلق قدرًا كبيرًا من الاهتمام.

وظهر كذلك الشيخ صدر الدين الكهرانى، الذي كان يصوم معظم الدهر، ويقوم الليل، وتجرد من الدنيا جميعها ونبذها وكان لباسه بسيط جدا، وقد زاره السلطان وأهل الدولة، وربما احتجب عنهم حتى يخلو بربه، وكان يرفض الأموال التى ترسل إليه من السلطان أو الأغنياء. وهناك من الشيوخ الزهاد أيضًا الشيخ نظام الدين البنداونى، وكان محمد بن تغلق يعظم شأنه، ويتردد عليه كثيرًا، وقد تنبأ هذا الشيخ بقرب تولية هذا الأمير سلطنة دلهى(٤٦).

وعُرف عن أهل سلطنة دلهي ايضاًالاعجاب بأنفسهم والاعتزاز بأمتهم والازدراء لمن عداهم، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعدى إلى اعتقادهم أنهم الأخيار والمفضلون عمن سواهم، ويتبين ذلك من خلال تلك الرواية : "...على أنهم لا يظنون أن فى الأرض غير بلدانهم وفى الناس غير سكانهم، وأن للخلق غيرهم علمًا، حتى أنهم إذا حدثوا بعلم أو عالم فى خراسان وفارس استجهلوا المخبر، لم يصدقوه للآفة المذكورة، ولو أنهم سافروا أو خالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم"(٤٧).

ويتضح من الرواية السابقة أن بلاد الهند كانت منعزلة بعض الشئ عن الاحتكاك والانخراط والانصهار الخارجى، وأنها كانت على درجة عالية من العلم والحضارة، ولكنها فى الوقت ذاته كانت تعانى من آفة كونهم شعب الله المختار، وأنهم مميزون عن غيرهم، حتى جاءهم الإسلام وأصلح نفوسهم وضبط مفاهيمهم وتعاليمهم.

وكانت هناك مؤثرات متبادلة بين المسلمين والهندوس، على الرغم من أن الصلات بينهم فى بداية الأمر كانت ضعيفة، وعاش المسلمون فى معزل عن الهندوس لاختلافهم الكبير فى المعتقدات والعادات والتقاليد، واشتد العداء بين الفريقين، بل نشبت حروب بينهم، وبمرور الزمن اختلط الفريقان، وتأثر المسلمون بالهندوس والهندوس بالمسلمين، وتجلى ذلك فى رفض المسلمين أكل لحم البقر وإنكار زواج الأرامل والاشتراك مع الهندوس فى أعيادهم وأفراحهم(٤٨).

وأخذ الهندوس عن المسلمين أيضاً عادة حجاب المرأة، و بعض أزياء المسلمين واستخدام الألفاظ العربية والفارسية والتركية، وأدى ذلك إلى ظهور لغة جديدة فى القرن الثالث عشر الميلادى وهى اللغة الأردية(٤٩).

وقد اعتاد أكثر من نصف مسلمى سلطنة دلهي ان يتلقبوا بألقاب الشعوب الأخرى المتميزة مثل شيخ وبك وخان وسيد، ولقب السواد الأعظم من المسلمين من أهل البلاد الأصليين فلقبوا بلقب الشخص الذى بلغ أعلى مرتبة بين هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم أو اندمجوا فى الطبقة الأرستقراطية الإسلامية(٥٠).

والشئ اللافت للنظر أن بعض المسلمين من العوام كانوا يقدمون النذور عند معابد الهندوس(٥١) وفى ذلك دلالة أن المسلمين الذين يعودون لأصل الهندى لم تكتمل صورة وحقيقة الإسلام لديهم، بدليل تأثرهم بطقوسهم ومعتقداتهم القديمة، ومن جاء إلى الهند مسلمًا ومارس هذه الطقوس، فهو متأثر وناقل عن أهل الهند. وعانى أيضًا من نقص فى التزامه بما أمر ونص عليه الدين الإسلامى.

وانقسم المسلمون فى الهند إلى سنة وشيعة، وكان سلاطين دلهى يشجعون الهنود على اعتناق الإسلام، وإذا أراد الواحد منهم اعتناق الإسلام، دخل إلى السلطان وأشهر له إسلامه، فيكسوه السلطان كسوة حسنة، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره، وقد كان فيروز شاه التغلقى يشجع الهنود من رعيته على اعتناق الإسلام، وأعلن أنه مستعد لإعفاء كل من يعتنق الإسلام من الجزية، ولقد أدى ذلك إلى إقبال كثير من رعاياه على الدخول فى دين الله أفواجا، وأعفاهم السلطان من الجزية ومنحهم الهدايا(٥٢).

وفى القرن الرابع عشر الميلادي، ظهر مصلح دينى هندوسى من جنوب الهند اسمه "رمانا ندا"، وقد هاجر إلى بنارس ودرس وتعلم تعاليم الإسلام، ومن خلال دراسته أدرك عيوب الهندوسية، وتحمس لمبدأ المساواة الذى أقره الإسلام، ووضع مذهبًا جديدًا أساسه المحبة والإخلاص والمساواة بين الناس، وتنقل بين بلدان سلطنة دلهي، والتف حوله كثيرون من طبقات مختلفة وديانات متعددة، ومن

أشهر تلاميذه شاعر مسلم يسمى "كبير" لم يرض عنه المسلمون لأن قصائده كانت تعكس بعض الاتجاهات الهندوسية وكذلك لم يرض عنه الهندوس لأنه كان يحقر آلهة البراهمة ويتحامل على جوانب كثيرة فى معتقداتهم، وواصل هذا الشاعر تنقله بين جميع بلدان الهند ينشد للناس أشعاره ويطلعهم على آرائه ومعتقداته حتى التف حوله كثيرون من الهندوس والمسلمين، وكان يوم وفاته يوما مشهودًا تنازع فيه المسلمون والهندوس كل يريد دفنه حسب تعاليم دينه(٥٣).

ومن أبرز العادات التى شاعت عند الهنود من غير المسلمين تحريمهم ذبح الأبقار، لانهم كانوا يعظمونها ويتبركون بها ويتفاءلون من إقامتها فى دورهم ويقومون على خدمتها وراحتها، وبلغ من شدة تقديسهم لها انهم كانوا يعاقبون كل من يقدم علي ذبحها بالحرق بعد أن يخاط في جلدها (٥٤).

وعند موت الرجل الهندوسي بسلطنة دلهي يتم حرق جسده فإذا بزوجته تندفع الي النار، وتحرق نفسها معه، وكانت تخرج متزينة يتبعها المسلم والكافر والطبول والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود. وكان السلطان فى دلهى لا يرى مانعاً من ذلك، لأن سلاطين دلهى لم يتعرضوا لعادات وتقاليد غير المسلمين فى بلادهم وحرق المرأة لنفسها بعد وفاة زوجها شرف كبير لأسرتها، وعُدت المرأة التى لا تحرق نفسها بعد وفاة زوجها غير وفية وجامدة. ورأى الرحالة ابن بطوطة ثلاث نسوة اعتزمن حرق أنفسهن بعد موت بعولتهن، فمكثن ثلاث ليال قبل الحرق فى غناء وطرب ومزح وسرور، وقد أتت إليهن النساء من كل مكان، وفى اليوم الرابع أتت كل واحدة منهن على فرس، وتزينت بأبهى زينة وتعطرت، والبراهمة يحتفلون بها وأقاربها معها وبين يديها الطبول والأبواق والأنفار، وتم الحرق فى موضع مظلم كثير الأشجار والمياه، وبين الأشجار أربع قباب وبين القباب صهريج ماء، قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الأشجار، وتشابكت غصونها، فلا تتخللها الشمس، ولما وصلت النسوة إلى القباب نزلن الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهن من ثياب وحلى، فتصدقن بها وأتت كل واحدة منهن بثوب خشن غير مخيط من قطن، وألقى عليهن الحطب في النار، وأحرقن ودقت الطبول، وأُلقى الرماد فى

نهر الكنج المقدس، وقد ألغى السلطان فيروز شاه التغلقى هذه العادة التـــي عمـــت معظم بلاد الهند(٥٥).

ولقد انتشر السحر فى سلطنة دلهى، وعلا شأن السحرة (الجوكيـــة)، وهـــى طائفة من السحرة تظهر العجائب، منها أنهم كانوا يقضون فترات طويلة بلا طعام أو شراب، وكثير منهم كان يحفر لنفسه حفرة فى الأرض، ويبنى على نفـــسه فـــلا يُترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم بها الشهور، ويتناولون حبوباً تمكـــنهم من احتمال الجوع، وتعوضهم عن الطعام، وسلطان دلهـــى يجالـــسهم ويعظهـــم، وبعضهم لا يتناول إلا الطعام البسيط ولا يأكلون لحم الحيوانات(٥٦).

وأهتم الجوكية بتهذيب شعر رأسهم والاعتناء به فكانوا يتركونه يتدلى حتى يبلغ طولهم أحياناً، واعتقد كثير من الناس فى سحرهم، فأقبلوا عليهم، وقد ذكـــروا أن مـــن كانت به عاهة من برص أو جذام كان يأوى إليهم مدة طويلة، فيبرأ بإذن الله(٥٧).

يتضح لنا مما سبق، وبشكلٍ جليٍ قيمة وأهمية السحرة فى المجتمع الهنـــدى بصفة عامة وسلطنة دلهي بصفة خاصة، ومدى ما تمتعوا به من حريةفي ممارسة طقوسهم وعاداتهم، وما حظوا به من مكانة ومهابة في نفوس معظم الهنود، واللافت للنظر أنهم كانوا يحيون حياة الزهد والتقشف فـــى ممـــرات تحـــت الأرض بأقـــل الأطعمة فى معيشة أقرب للتصوف، وقد ترك لهم الحكام المسلمون من المماليك و الخلجيين و بنى تغلق حرية ممارسة أفكارهم وتعاليمهم وفى ذلك دلالة على قبـــول الآخر.

ومارس معظم الناس في سلطنة دلهي طقوسهم، ومعتقداتهم، وعاداتهم بحرية كاملة، وتعايش المسلمون مع غيرهم من أصحاب المعتقدات الاخرى(٥٨). ومـــنهم البراهمة الذين إعتقدوا أن الله هو الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء المختار فى فعله القادر الحكيم الحى المحى المدبر المبقى الفرد فى ملكوته عـــن الأضـــداد والأنداد لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شئ وأن الله يحيط بكل شئ ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء(٥٩).

خامسًا- الاحتفالات والأعياد:

احتفل المسلمون فى سلطنة دلهى بالعيدين بمظاهر تليق بالمناسبتين الكبيرتين، وعنى سلاطين دلهى عناية كبيرة بالاحتفال بالأعياد بطريقة فيها شئ كبير من الأبهة، وفى ليلة العيد كان السلطان يرسل إلى الخواص والملوك وكبار رجال الدولة والأعزة، وهم كبار ضيوف السلطان الأجانب، والكتاب والحجاب والنقباء والقوادُ والعبيد، وأهل الأحباء الخلع الثمينة، وكانت الفيلة تُزين فى صبيحة العيد بالحرير والذهب والجواهر، وخصص ستة عشر فيلاً لركوب السلطان والذي كان يركب فيلاً منها، وبين يديه خدمه ومماليكه، وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر ويرتدى مماليكه فاخر الثياب، ويمشى بين يديه النقباء الثلاثمائة، ويركب قاضي القضاه وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشوام والمصريين والمغاربة، كل واحد منهم على فيل، و يركب المؤذنون الفيلة ويخرج السلطان من باب القصر، والعساكر تنتظره والمشاة والمؤذنون والقضاة يذكرون الله، وخلف السلطان الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهله وإخوته، كلٍ بمراتبه وعساكره وأفراد أسرته كل بمراتبه وعساكره وكل من يركب فى هذا اليوم يكون ورعًا هو وفرسه ويؤدى السلطان ورجال الدولة صلاة العيد، فإذا كان عيد الأضحى نحر السلطان ويعود الموكب إلى القصر بعد ذلك(٦٠).

وكان القصر يُفرش يوم العيد، ويُزين بأبدع زينة، وأُقيمت خيمة كبيرة لاستقبال المهنئين بالعيد اشملت كراسٍ من ذهب، وبصدر المجلس وجد سرير السلطان من الذهب الخالص، كله مرصع القوائم بالجواهر وينادى الحجاب بمقدم السلطان، ويتوافد القضاة والخطباء والعلماء والمشايخ على السلطان للسلام والتهنئة بالعيد الواحد تلو الآخر من غير تزاحم، ويغدق السلطان المال على من يشاء ثم يقدم الطعام لضيوف السلطان، ويصب عبيد الملك ماء الورد على الحاضرين صبًا، ويجالس السلطان الناس باقى أيام العيد، ثم يأتى أهل الطرب وتغنى الفتيات الأسيرات من بنات الملوك وترقصن، ويهبهن السلطان للأمراء والأعزاء، ثم تأتى بعد ذلك سائر الجواري، فيغنين ويرقصن ويهبهن لأقاربه وأصهاره، ويجلس

السلطان لذلك بعد العصر واليوم الذى بعده، يعود القصر إلي الترتيب السابق ويهب السلطان الفتيات الائي تغنين وترقصن لأمراء المماليك، وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه، وينعم عليهم، وفى اليوم الرابع يعتق العبيد، وفي اليوم الخامس يعتق بعض الجوارى، وفي اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى، والسابع يعطى الصدقات(٦١).

كان مجلس السلطان محمد بن تغلق للناس بعد العصر غالبًا وكان مجلسه يقام على مصطبة مفروشة بالبياض، وإذا جلس يقف أمامه الوزير، والكتاب خلف الوزير وخلفهم الحجاب ووكيل الدار ونائبه، ويتلو الحجاب النقباء ويجلس السلطان محاطًا بحرسه المدججين بالسلاح، وعن اليمين واليسار قاضى القضاة وخطيب الخطباء، ثم سائر القضاة وسائر الفقهاء وكبار الشرفاء والمشايخ، ثم أخوة السلطان وأصهاره، ثم الأمراء الكبار وكبار الأعزة، ثم القواد، وكان يؤتى بستين فرسًا مسرجة ملجمة، ويؤتى بخمسين فيلاً مزينة بثياب الحرير، ومعدة لقتل أرباب الجرائم، وكانت تلك الفيلة مدربة على خدمة السلطان، يقف نصفها عن اليمين ونصفها عن اليسار، وخلف هذا كله يقف عبيد السلطان مسلحين ومتيقظين، حتى لا يتسلل أحد خلال هذا الجموع(٦٢).

ومن يقدم على السلطان بهدية، يدخل الحاجب ونائبه خلفه، ثم وكيل الدار ونائبه، ويبلغون السلطان بشأن الضيف والهدية، فإذا أذن لهم السلطان يظهرون الهدية، وإذا كان الضيف رجلاً كبيرًا، خاطبه السلطان ألطف خطاب ورحب به، وإن كان ممن يستحق التعظيم صافحه، وقد يعانقه وقد يخلع عليه ويأمر له بالمال(٦٣).

وإذا قدم السلطان من سفر زُينت الفيلة، وحُملت أمامه الستارة المرصعة بالجواهر الثمينة، وصُنعت قباب من خشب مكسوة بثياب الحرير، وفى كل منها الجوارى المغنيات يلبسن أجمل لباس وأجمل حلية، وتُوزع المياه العطرة والحلوى على الناس، ويمر موكب السلطان فى دلهى، التي كانت تُزين حيطان شوارعها – التى يمر بها –بالحرير، ويمشى أمامه المشاة من عبيده وتلقى قطع الذهب والفضة

على الناس حين دخوله إلى المدينة، حتى وصوله إلى قصره، وفى هذه المناسبة وغيرها يقيم السلطان سماطًا يدعو له كبار رجال الدولة(٦٤).

سادسًا- النواحى الترفيهية بسلطنة دلهى:

يميل الإنسان بطبيعته إلى حياة الترف والترويح عن النفس والاهتمام بأناقته، وتدل الآثار القديمة على أن الإنسان حتى فى مرحلة الوحشية كان يميل إلى الترفيه والأناقة، فعندما كان معظم جسمه عاريًا كان يزينه بأنواع الوشم، ويتفنن فيها كما استخدم بعد ذلك الحلى المختلفة، وكان لابد أن يتطور هذا إلى ما نراه اليوم من أنواع الأقمشة وألوان الأزياء ومختلف وسائل الترفيه والتسلية(٦٥).

كان للنواحى الترفيهية فى سلطنة دلهى حظٌ كبيّر حيث اهتم أهل الهند بالموسيقى منذ فجر التاريخ وتطور فن الموسيقى بفضل تشجيع ملوك الهند القدامى، وظهر موسيقيون أكفاء بأعداد كبيرة وعرف الهنود النوتة الموسيقية واستخدموها فى فنهم، وانتشرت الموسيقى بداخل سلطنة دلهي(٦٦).

واحتلت الموسيقى المرتبة الأولى بين وسائل الترفيه والتسلية فى سلطنة دلهى، ولم يكن سلاطين الترك فى دلهى أقل اهتمامًا بالموسيقى من أسلافهم، بل شغفوا بها وشجعوا الموسيقيين، وكان الأمير محمد شاه الاول(حكم تحت اسم علاء الدين محمد شاه عام ٦٩٥هـ/١٢٩٦م) تلميذًا لرائد الموسيقى فى الهند أمير خسرو، مجدد الألحان الموسيقية فى الهند ومطورها، وأصبحت الموسيقى فى سلطنة دلهى من الأمور التى لا غنى عنها فى حياتهم اليومية، وأقبل الناس بشغف على سماع الموسيقى وتعلم الألحان(٦٧).

وكان السلطان جلال الدين خلجى محبًا للموسيقى، وضم بلاطه عدداً من الموسيقيين منهم محمد شاه شانجى، ونصرت خاتون ومهرأفروز، كانوا أشهر وأمهر عازفين فى بلاط السلطان وتميزوا بجمال أصواتهم وأغانيهم العذبة(٦٨).

وكان السلطان علاء الدين خلجى يحب الاستماع إلى الموسيقى أيضًا، وكانت أشهر الآلات الموسيقية فى عهده الدف والربابة والمزمار والناى والأرغول، وبالغ علاء الدين في محبته للموسيقيين وتقديره للموسيقى (٦٩).

ولما كان أهل الطرب والموسيقى والغناء قد وجدوا فى دلهى التقدير والعرفان، فقد وفدوا إليها من خراسان وبلاد الأفغان وغيرها من البلاد الإسلامية، ولما علم أمير خسرو بمقدم موسيقيين خراسانيين إلى دلهى، عقد معهم مناظرة حضرها كبار موسيقيي دلهى، وأنشد كل موسيقى ألحانه، وقد انتهت الندوة الموسيقية باعتراف الموسيقيين الخراسانيين بتفوق الموسيقى الهندية على ما سواها(٧٠).

أما بالنسبة لتغلق شاه وغازى تغلق فلم يقبلا على الموسيقى والغناء، ولم يمنع تغلق شاه عزف الموسيقى فى بلاطه فحسب، بل تدخل أيضًا فى الموشحات الدينية، واستدعى نظام الدين أوليا وناقشه فى شرعية الاستماع إلى الموسيقى وإنشاد الأغانى، وأقنع الشيخ السلطان بأن الأغانى الدينية ليست حرامًا، ولكن السلطان التغلقى ظل يكره الموسيقى والغناء ولما ولى فيروز تغلق السلطنة، تحرج من سماع الموسيقى والغناء، ورفض عقد الحفلات الموسيقية والغنائية فى بلاطه(٧١).

وبلغ من ازدهار الموسيقى والغناء فى دلهى أنه كان بها ضاحية للمغنيين والمغنيات، تُسمى سوق طرب آباد كانت من أجمل الأسواق وأكبرها، وكان المغنون يغنون من أول النهار حتى منتصفه، وحينما يتناول الأمير الغداء، يأتِ أهل الطرب إلى موكب الأمير، فيغنون إلى أن يفرغ من طعامه(٧٢).

في ضوء ما سبق، يتبين أن الموسيقى والغناء كانا جزءًا أصيلاً من الثقافة الهندية فى دلهى، وكان الاهتمام بهما أكثر من كونهما مصدر للتسلية والترفيه، فقد كانا جزءاً من نسيج المجتمع ونالا الاهتمام من معظم الحكام، وتساوى فى الاستمتاع بهما كل من الحاكم والمحكوم، ولكن كلٍ على طريقته، وأصبح الغناء والموسيقى بآلاتها سمة مميزة لسلطنة دلهى، ومقصداً للباحث عن الغناء والترفيه والشهرة.

ولم تتوقف وسائل الترفيه والتسلية عند الغناء والموسيقى فقط، بل و تنوعت ايضاً، فكان منها المجالس الاجتماعية التى عُقدت فى قصر السلطان وبيوت الأمراء ورجال الدولة، حيث يجتمع الأدباء والعلماء للمناظرة والمناقشة، وانتشرت القصص والحكايات فى الهند وسلطنة دلهي،فقد كانت تروى فى مجالس السمر، وقد أخذ العرب عن الهند كثيراً من القصص، مثل قصة كليلة ودمنة وقصة السندباد الكبير

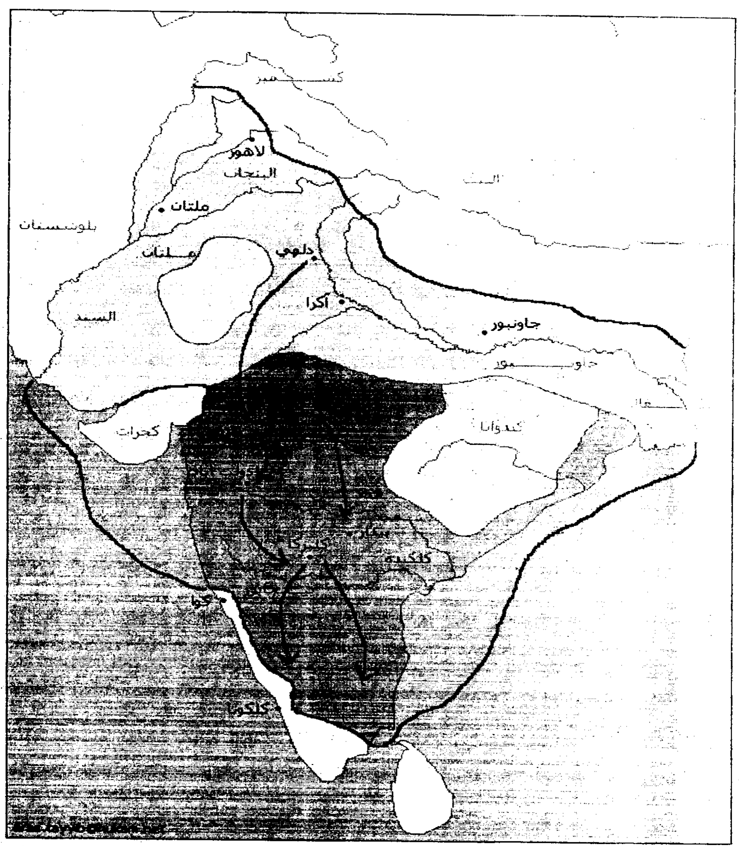
والسندباد الصغير، وكتاب هابل فى الحكمة، وكتاب الهند فى قصة هبوط آدم وكتاب ألف ليلة وليلة[٧٣].

وانتشرت فى بلاد الهند بعض الألعاب للتسلية من أهمها الشطرنج. والهنود هم أقدم من مارس لعبة الشطرنج والصيد وغيرها من أنواع التسلية المختلفة[٧٤].

واستطاع الشعب الهندى فى سلطنة دلهى أن يعبر عن نفسه وأن يجعل له هوية تميزه عما سواه من خلال تمسكه ببعض العادات والتقاليد، وانفراده ببعض وسائل التسلية التى كانت من اكتشافه ثم عرفها العالم من بعده مثل لعبة الشطرنج.

علي الرغم من أن المظاهر الاجتماعية فى سلطنة دلهى عبرت عن الهوية والثقافة الهندية، إلا أن هذا لا يمنع أنها نهلت من المسلمين وحضارتهم، وتأثرت بالنظم الاجتماعية فى بلاد المشرق الإسلامى، وكان التأثير متبادلاً بين الحضارة الإسلامية فى الشرق والحضارة الهندية، فحدث نوعٌ من المزج بين هذه الصفات والعادات والتقاليد.

وكانت فترة حكم المماليك والخلجيين و بنى تغلق من أبرز وأهم الفترات فى دلهى، حيث شهدت نضج المؤثرات المتبادلة التى تمت من خلال المسلمين الفاتحين للهند، وسكان البلد الأصليين من الهنود وشهدت هذه الفترة قوة حربية وعسكرية وسياسية وثقافية وحضارية وساعد على ذلك رغبة الحكام أنفسهم فى التطور والرقى والنقل عن الحضارات، للوصول إلى الازدهار الحضارى، وهذا يدعونا إلى ضرورة الفهم الصحيح والانفتاح على العالم وتبادل المؤثرات الثقافية والحضارية وقبول الآخر، لأن فى ذلك طوق النجاة.



المماليك - الخلجيون - آل تغلق

الهند من القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر

- دولة المماليك في دلهي (حتى 1290 م)
- أراضي تم فتحها أثناء عهد دولة الخلجيين (حتى 1320 م)
- أراضي تم فتحها أثناء عهد دولة آل تغلق
- حدود دولة آل تغلق (ح 1350 م)
- إمارات هندية مستقلة، تحت سلطة دول آل تغالق

الهوامش:

(١) الحميري(محمد عبد المنعم الحميري):الروض المعطار في خيــر الاقطــار،تحقيق إحــسان عباس، الطبعة الثانية،ناصر للثقافة والنشر، ١٩٨٠،ص ٨٧ .،عبدالمنعم النمر:تاريخ الاسلام في الهند ،الطبعة الثالثة،الهيئة المصرية للكتاب ،القاهرة،١٩٩٠،ص٢

(٢)البيروني(أبوالريحان محمد بن أحمد) ت٤٤٠هـــ ١٠٤٨م:الآثــار الباقيــة عــن القــرون الخالية،طبعة أدوارد سخا،د.ت ،ص٢٤.،عبدالمنعم النمر:المرجع السابق ، ص٢-٣

(٣) الحكيم محمد قاسم البيجابوري:تاريخ فرشته ،اربع اجزاء ،ج١،الهند ، د.ت،ص٩٣

(٤) **دلهي**:اسمها القديم دهلي وبنيت في عهد أحد الملوك الهنود واسمه (وادبته) الراجبوتي عام ٣٠٧ه -٩١٨ م وسميت دهلي لأن أرضها كانت لينة متماسكة، ودهول فـــي اللغـــة الهنديـــة معناها التراب غير المتماسك.وقد جاء بعد هذا الملك عدة ملوك تداولوا عليها حتى سقطت في يد قطب الدين ايبك وصارت حاضرة الدولة الاسلامية في الهند عام ٥٨٩ه-١١٩٣م. لمزيـــد من التفاصيل راجع :الحكيم محمد قاسم البيجابوري: تاريخ فرشته،ص ٩٤-٩٥-٩٦.
النطق القديم لدلهي هو دهلي ولكن الإنجليز حرفوه إلي دلهي وصار هذا الاسم هـــو الاكثـــر شيوعا حتى وقتنا الحاضر .وقدآثر الباحث استخدم الاسم الشائع والاكثر زيوعاً وهو (دلهي). راجع :عبدالمنعم النمر:المرجع السابق ، ص١٠١.

(٥)الحكيم محمد قاسم البيجابوري: تاريخ فرشته،ص ٩٤

(٦) البلاذرى (الإمام أبى الحسن البلاذرى): فتوح البلدان، عنى بمراجعتـــه والتعليـــق عليـــه، رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٣هــ – ١٩٨٣م، ص٤٢٠-٤٢١.

(٧) عصام الدين عبدالرؤوف الفقى:- بلاد الهند فى العصر الإسلامى، عالم الكتـــب، القـــاهرة، ١٩٨٠، ص٩.

Lane Poole.S.:- Medieval India under the Mohammedan Rule", New York, 1962. p.10.

(٨)الزط:- يتفق أصحاب المعجمات العربية على أن الزط – بضم الزاى وتشديدها تعريب لجت، ويقول الخليل (ت١٧٥هــ) فى معجمه: "الزط جيل من السودان والزط أعراب جت بالهنديـــة وهم جيل من أهل الهند إليهم تنسب الثياب الزطية. راجع، الخليل (الخليل بن أحمد الفراهيدى

الأزدى) ت١٧٥هـ:- كتاب العين، ثمانية مجلدات، ، تحقيق مهدى الخوارزمى، إبراهيم السامرانى، بيروت، دار ومكتبة الهلال، د.ت، ص٣٢٧. وقد عرف العرب الزط فى فترة ما قبل الإسلام لأن أعدادًا كبيرة من هؤلاء استقرت فى الجهات الدنيا من بلاد الرافدين وخدم بعضهم كأجناد فى جيوش الدولة الساسانية وشاركوا فى التصدى للمسلمين فى بداية الفتوح. لمزيد من التفاصيل راجع، ابن هشام (أبومحمد عبدالملك بن هشام) ت٢١٨هـ:- كتاب التيجان فى ملوك حمير (عن وهب بن منبة) ط١. مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد، الدكن، ١٣٤٧هـ، ص١٠٥، ١٢١، ٢٢٦؛ الهمذانى: (أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب المعروف بابن الحائك) ت٣٣٤هـ:- الأكيل، جـ٨، تحقيق نبيه أمين فارس برنستن، ١٩٤٠، ص٢٠٨.

(٩) Chand: Influence of Islam in India, p.32.

(١٠) البلاذرى:- المصدر السابق، ص٤٤٢.

(١١) نفسه، ص٤٤٤- ٤٤٦.، حسن إبراهيم حسن:- تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة، ١٩٤٦م، جـ٢، ص٢٥٢

(١٢)البلاذرى:- المصدر السابق، ص٤٤٥. ، الحكيم محمد قاسم البيجابوري: تاريخ فرشته،ص ٩٤ حسن إبراهيم حسن:- تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة، ١٩٤٦م، جـ٢، ص٢٥٢.

(١٣) أحمد الساداتى:- تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية،ج١ ، القاهرة، ١٩٥٨، ص٧٥.

(١٤) العتبى (أبو نصر محمد بن عبدالجبار) ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م:- تاريخ اليمني، جـ١، القاهرة، ١٢٨٦هـ، ص٥٨؛ توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام (بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبدالمجيد عابدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١، ص١٨٨.

(١٥) عصام الدين عبدالرؤوف الفقى: بلاد الهند، مرجع سابق، ص٦٠٥.

(١٦) ابن بطوطة: (أبوعبدالله محمد بن إبراهيم اللواتى) ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م:- رحلة ابن بطوطة، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٩٦- ٩٧.

(١٧) الحميري:المصدر السابق ،ص١١٧، ول ديورانت:- قصة الحضارة "الهند وجيرانها، الشرق الأقصى (الصين)"، ترجمة د. زكي نجيب محمود، محمد بدران، المجلد الثانى، جـ٣، هيئة الكتاب، القراءة للجميع، عام ٢٠٠١م، ص١٥٢.

(١٨) Indian Yearbook, Bombay, 1929, p.563.

(١٩) ول ديورانت:- المرجع السابق، ص١٥٣.

(٢٠) Indian Yearbook: op.cit., p.564; (Blair) Sheilas:- "The Arts of the Mongols" Saudi Arameo World Calder wood, University, January/ February, 2003,p p.3- 4

(٢١) ول ديورانت:- المرجع السابق، ص١٨٦.

(٢٢) د/ عبدالمنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٠٥.

(٢٣) نفسه، ص١٣٥.

(٢٤) Ali, M. AA:- History of Ind-Pakistan Dacca, 1970, p.99.

(٢٥) باراني: تاريخ فيروز شاهى، طهران، ١٣٧٦هـ، ص٣٢٠- ٣٢٣.

(٢٦) ول ديورانت:- المرجع السابق، ص١٨٦-١٨٧.

(٢٧) عصام الدين عبدالرؤوف:- بلاد الهند، ص٢٢٨.، ول ديورانت:- المرجع السابق، ص١٨٦-١٨٧.، Chand: Influence of Islam in India, p.32-33.

(٢٨) عصام الدين عبدالرؤوف:- بلاد الهند، ص٢١٨.

(٢٩) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٢٨٦.

(٣٠) نفسه، ص٢٨٦- ٢٨٧.

(٣١) جوستاف لوبون: حضارة الهند، ص١٢٥.

(٣٢) نفسه. Majundar.R.C: An Advanced History Of India, New York,1968,P.284-285

(٣٣) غياث الدين بن همام الدين الحسينى: حبيب السير فى أخبار أمراء البشر، طهران، ١٣٧٣هـ، ص٧٣ Munshi:- The Struggle for Empire, p.180

(٣٤) عصام الدين عبدالرؤوف: بلاد الهند، ص٢٢١، ٢٢٢.

(٣٥) سورة النساء، أية٣٦

(٣٦) المنذرى: الترغيب والترهيب، جـ٣، ص٦١- ٦٣.

(٣٧) عصام الدين: بلاد الهند، ص٢٢٣.

(٣٨) Munshi:- The Struggle for Empire, pp.179, 180.

(٣٩) Ibid., 180.

(٤٠) باراتى: تاريخ فيروز شاهى، طهران، ١٣٧٦هـ، ص٢٨٢- ٢٩١.

(٤١) عصام الفقى:- الهند، ص٢٢١.

(٤٢) نفسه، ص٢٢١-٢٢٢؛ Majundar.R.C: op.cit., p.285

(٤٣) عبدالمنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ص١٣٦- ١٣٨.

(٤٤) ول ديورانت:- قصة الحضارة، ص١٧١.

(٤٥) ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٠.

(٤٦) نفسه، ص٣٣.

(٤٧) البيرونى (أبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى) ت٤٤٠هـ:- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة، قدم هذه الطبعة د. محمود على مكى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، لسنة٢٠٠٣، ص١٣٦- ١٣٨.

(٤٨) ابن بطوطة:المصدر السابق ، جـ٢، ص٢٨.

(٤٩) نفسه؛ Rawlinson:- A Short Cultural History of India, p.244.

(٥٠) أرنولد:- الدعوة إلى الإسلام، ص٢٨٦.

(٥١) Rewlinson:- op.cit., p.244.

(٥٢) ابن بطوطة:المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠؛ Elliot:- The History of India, vol. II, p.386.

(٥٣) عصام الفقى:- الهند، ص٢٢٩- ٢٣٠.

(٥٤) ابن بطوطة،المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠؛البيروني:المصدر السابق،ص ٢٤

(٥٥) Majundar.R.C: op.cit., p.290

(٥٦) عصام الفقى:- الهند، ص٢٣١.

(٥٧) ابن بطوطة،المصدر السابق ، جـ٢، ص١٠٢.

(٥٨) البيرونى: تحقيق ما للهند من مقولة، ص٤٢.

(٥٩) باراني : تاريخ فيروز شاهي ،ص ٢٩٤.،البيروني : المصدر السابق ، ص٣٢.

(٦٠) ابن بطوطة:المصدر السابق، جـ٢، ص٢٨.،
Rawlinson :A short Cultural Hist Of India, Oxford, 1930, P.237

(٦١) ابن بطوطة، ص٣٩؛ عصام الفقى: الهند، ص٣٣٣- ٣٣٤.

(٦٢) ابن بطوطة:المصدر السابق ، جـ٢، ص٣٦.،باراني :تاريخ فيروز شاهي،٢٩٣-٢٩٤

(٦٣) ابن بطوطة:المصدر السابق ، جـ٢،ص٣٧.

(٦٤) عصام عبدالرؤوف: الهند، ص٢٣٤، ٢٣٥. Rawlinson:op.cit,p238

(٦٥) تحية كامل حسين: تاريخ الأزياء وتطورها، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص٥.

(٦٦) عصام عبدالرؤوف: الهند، ص٢٢٣.

(٦٧) نفسه، ص٢٢٣.

(٦٨) باراني:- تاريخ فيروز شاهي، ص١٣٠.

(٦٩) عصام عبدالرؤوف: الهند، ص٢٢٣- ٢٢٤. Blair Sheilas:op.cit,P.4

(٧٠) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص٢٤٠.

(٧١) محمد قاسم هندوشاه: تاريخ فرشته، طهران، د.ت، ص٢٣٩، ص٢٤٠.

(٧٢) ابن بطوطة، جـ٢، ص١٠٥.

(٧٣) أحمد أمين:- ضحى الإسلام، القاهرة، ١٩٣٨م، ص٢٤٨.

(٧٤) عصام عبدالرؤوف: الهند، ص٢٢٧. ، Majundar.R.C:op,cit295 ، Rawlinson:op.cit,p241